

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

مركز البحوث والدراسات
المتنوع - الرياض
علوم المكتبات والمعلومات
الدراسات


وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

البلاغة والتطبيق

تأليف

الدكتور أحمد مطلوب

الدكتور حسن البصير

طبعة ناسخة

١٩٩٩

البلاغة والتطبيق

١٩٩٩

71

اللغة
العربية

مكتبة
مجان

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

البلاغة والتطبيق

تأليف

الدكتور كامل حسن اليهدير

الدكتور أحمد مطلوب

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة لدى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

١٤٢٠ هـ

١٩٩٩ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القدمة

البلاغة من علوم اللغة العربية، وقد كانت السبيل القضي إلى فهم كتاب الله وكلام العرب؛ ولذلك أول القدماء هذا الفن عناية كبيرة ووضعوا فيه دراسات كثيرة اتسمت بالأصالة والتميز الشديد؛ ولولا جتوح الحياة الأدبية في القرون المتأخرة إلى التقليد نقلت البلاغة ناهضة بالحياة ترقد الأدب بكل بدع، وليقت معلما من معالم التطور والتجديد؛ ولكن ما أصاب الأدب من ذبول أورتها جموداً تمثل في شروح قتلخيص وبعض ما عرف من كتبها في تلك العهود:

وإذ قامت محاولات جادة في هذا العصر لإعادة الحياة إلى البلاغة وربطها بالأدب الحديث، ولكن تلك المحاولات لم تنثر كثير ألائها لم تكمل ما بدأه السابقون وإنما انصرفت إلى وضع الشائع من غير أن تمسّ الموضوعات أو تحاول بحثها من جديد؛ وإلّا من أسباب ذلك أن بعض أصحاب تلك المحاولات لم يتصالحوا درسها، وكان للرحوم أمين الخولي أفضلهم على النهوض بالبلاغة لولا وقوفه عند سطح فن القول:

وعالِبُ اللغة العربية في الكلية لا يحتاج إلى رسم المطالع قدر حاجته إلى الأصول التي تثير سبيله وتبصره بموالمع الكلام؛ وأول ما ينبغي أن يحرره الأسس العامة التي تقوم عليها البلاغة كما استقرت في علومها الثلاثة: المعاني والبيان والبدع، ومن هنا كان منهج الدراسة بكلية الآداب في جامعات القدر العراقي، يقوم على معالجة هذه العلوم الثلاثة إلى جانب المهاد التاريخي الذي يكشف عن نشأة البلاغة وتطورها ليكون الطالب على يدة من أمر هذا الفن الذي نشأ ملاحظات عامة ثم استوى علما فإ قواعد وأصول: وهذا الكتاب أربعة أبواب:

الأول: نشأة والتطور، وقد شمل مقدمة في تاريخ البلاغة العربية وتطورها ودراسة للآثار فيها كالقرآن الكريم وكتب التفسير واللغة والنحو والأدب والفلسفة، وما نتج عن ذلك من التبعين تمثلا في الدراسة للكلامية والدراسة

الادبية: واحترى هذا الباب دراسة تاريخية لمصطلحي الصحاح والبلاغة وتطورهما
خلال القرون:

الثاني : علم المعاني، وقد ضم البحث في تعريفه ودراسة أهم موضوعاته
كالتخريف والانتفاء والتقديم والتأخير والتفصيل والوصول والتعريف والابحاز والاطباب
والساواة:

الثالث : علم البيان، وقد شمل تعريفه ودراسة تشبيهه والحقيقة والمجاز
والاستعارة والكتابة والتعريف:

الرابع : علم البديع، وقد تضمن نشأته وأهم المحسنات التقضية والمعنوية:
وتوزعت هذه الأبواب على ثلاثة فصول دراسية ليكون للطلبة متسع يتصرفون
فيه إلى استيعاب الأصول وتلوق النصوص ومعرفة ما فيها من فنون:

كثبت البابين : الأول والثاني، وحرر زميلي الدكتور كامل البصير البابين:
الثالث والرابع، وكان الالتزام واضحاً بالتمهيد التحليلي واعتماد النصوص البليغة
ووضع التطبيقات والتعريفات في نهاية كل باب ليكون ذلك عوناً للطلبة على فهم
الأصول وتلوق النصوص: ولم يقلل الكتاب بالتمهيدات الكثيرة وإنما كان الاكتفاء
بما يقرب الصورة ويخدم الهدف ليطبق الطلبة بعد ذلك إلى رحاب أوسع بعد أن
يتروكوا بالتمهيد ويألفوا أساليب التمرين ويتلوهوا فن القول:

لقد أحلت أبواب هذا الكتاب من التقديم أصولها، لأن النهج المقرر يلزم ذلك،
ولأن قتل التقديم فهما أول خطوات التجديد، وهذا ما نسمى إليه الدراسة العلمية،
حتى إذا ما تقدم الطلبة هذا التقديم وجدوا في تقوسهم للتمهيد على العطاء ساروا
في طريق البناء وفي تقويمهم نور من التراث وفي لغوسهم قيس من التجديد:

وبعد فهذا كتاب فيه من التقديم أصوله ومن التجديد تطبيقاته، وإن يكون ناقصاً
إلا بعد أن يحسن الطلبة الانتفاع به، وبعد أن يقوموا الاسئلة ما فيه من أود، وما
لكمال إلا لله تعالى:

الأول من كانون الثاني ١٩٨١م

الطرابلس والمشرور من صفر ١٤٠١هـ

الباب الاول
النشأة والتطور



الفصل الأول
التاريخ
للبحث الأول
شكاه واكولات

شكاه :

ان الباحث حينما يتلمس البلور الاول لبلاغة العربية قبل عهد التدوين والتأليف يجد أن العرب حرفوا كثيراً من الاحكام القلبية التي أعانهم على فهم الشعر وتلوه ونقله : والامة التي أنجبت للشعر التصول والخطباء المصالح لابد أن تعرف المعالم التي يختصها الشعراء ويرسمها الخطباء، واذا كان كثير من الاحكام القلبية قبل الاسلام لم يصل اليها مع ما وصل من شعر وخطب وأمثال ، فان بعض تلك الاحكام تناقلتها الالسن وتداولتها الكتب، وقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم أصحاب بيان فقال سبحانه وتعالى : والرحمن : علم القرآن : خلق الانسان ، علمه البيان (١) ، وقال عن حسن كلامهم وشدة أسرهم وتأثيره في النفوس : ومن الناس من يمجيب قوله في الحياة الدنيا (٢) : ووصف الوليد بن المغيرة القرآن وقال : هوائه لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له حلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان آلاءه لشعر ، وان أسفله لشدق (٣) :

ويمكن ان يستدل الباحث على ان العرب حرفوا كثيراً من الاحكام القلبية قبل الاسلام بأمرين :

الاول : عقل لا يمكن إنكاره ، وهو انه لا يُصدّق ان الشعر وصل إلى ما وصل اليه في ذلك العهد ، وان الخطابة بلغت ذروتها ، وان اللغة اتخذت صورتها

(١) سورة الرحمن ، الآيات ١ - ٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٠٤ .

(٣) في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٠ : هوائه ان لقره حلوة ، وان أسفله لشدق ، وان لقره لبداه .

من غير ان يكون هناك حقل ملبر لكل ذلك، ومن غير ان تكون هناك اصول عامة تعترف عليها الشعراء والشكليون وساروا عليها فيما نظرنا أو قالوا، ومهما تحدثت باحثون عن السليقة الصافية والذوق السليم، ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء، فان العقل ليكر ان يكون ما كان من غير ثقافة وذرية، وتواعد نصية لم الطريق وفتح أمامهم سبل القول:

الثاني : قلبي وهو ما أثر عنهم وما جاء عن خطباتهم ووصف عطيتهم: وقد كان الخطباء يمترون ببياتهم ويغفرون بأنفسهم، ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه الذي رأى من دعامة وقصره وقتله، فقال للنعمان: «تسمع بالعبيدي لأن تراه»، فقال: «أبليت النعم، ان الرجال لا تكال بالقفران (١) ولا توزن باليزان، وليست بسوك يستقى بها (٢)، وانما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه، ان صال صال ببيتان، وان قال قال ببيان (٣): وكان ضمرة عطيبيا قارضا شامرا شريفا سيدا، وكان يحكم وينظر بالاسجاع:

واستدل الجناظ من ألقاظ «العي» و «البي» و «الحصر» و «التشم» و «الخطل» و «السهب» على ان العرب قبل الاسلام عرفوا كثيرا من عيوب البلاغة والخطابة، وقال: «كلام الناس في طبقات كما ان الناس أنفسهم في طبقات، فمن لكلام الجزل والسفيف، والمليح والحسن، والقيح والسبح، والخليف والتقبل، وكفه حربي، ويكل قد تكلموا، ويكل قد تمادحوا وتعايروا، فان زعم زاعم انه لم يكن في كلامهم تناضل ولا يتهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا العيب والبيء، والحصر والتشم، والخطل والسهب، والمتشقق والمضيق، والهماز والثرثار، والكنكار والمكثار؟ ولم ذكروا المجر والمقتر، والمليبان والتخليط، وقالوا تلقاء، وفلان

(١) القفران : جمع قفيز، وهو سكيال.

(٢) السك : بالفتح وسكون السين : السك، وسي بذلك لانه يسلك فيه الشيء إذا

جبل سقا.

(٣) ريبان واليمين ج ١ ص ١٧١، ٢٢٧.

يتلوه في خطبته (١)؟ وقالوا فلان يخطبني في جوابه ويجعلني ككلامه ويتناقض في خبره؟ ولولا ان هذه الامور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض لبعض الآخر بهذه الاسماء (٢)

ووصفوا كلامهم في اشعارهم فيجعلوها كبرود النصب، وكالحلل والمطاف ولقد يباح والوشي وأنشاء ذلك. (٣) ووصفوا شعر اعمم وأشعاراً عنهم أنفياً كاللهليل والرقش واللقب والتمثل والتنخل والأنواء والشابذة، وهذه الارصاف تتصل بأحكامهم لتقدمه وينوونهم الذي ميزوا به بين شاعر وشاعر:

وكان بعض الشعراء يمتون بأشعارهم وينسجونها قيل ان يذبحوا بين الناس، واشتهر زهير بن ابي سلمى بالمحوليات وتبعه في ذلك الحطابية وغيره ممن اعتصوا بتقبح الشعر وتجويدته، وكان الحطابية يقول: وغير شعر احول الحنككة وقال الاصمعي: زهير بن ابي سلمى والحطابية والشاهما عبيد لشعر لانهم نكحوه ولم يذبحوا فيه مذهب للطبعين (٤). وقال الجاحظ: «وكذلك كل من جود في جميع شعره ووقف عند كل بيت فانه واعاد فيه النظر حتى يخرج آيات القصيدة كلها مستوية في الجودة» (٥). وقال واصفا هؤلاء الشعراء: «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (٦) وزمانا طويلا، ويردد فيها لقره، ويجعل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه انماها لقلته وتبها على نفسه فيجعل عقله زمانا على رأيه، ورأيه حياراً على شعره، اشفاقا على أدبه وانحراراً لما يحرك الله تعالى من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد: الحريات، والقلادات، والمقدمات، والحكمات، ليصير قائلها قحلا عندئذياً وشاعراً مقلداً» (٧). وقال: «ومن تكسب

(١) النخل: هو النخل وهو الكلام القائم الكثير السهب. كثير الكلام.

رجل مهمل: كثير الكلام الثقلية والافتاح. كثير الكلام.

(٢) البيان ج ١ ص ١٤٤-١٥٠.

(٣) البيان ج ١ ص ٢٢٢.

(٤) الشعر والشعراء ج ١ ص ٧٨.

(٥) البيان ج ٢ ص ١٣.

(٦) كريتا: تما.

(٧) البيان ج ٢ ص ٩.

بشعره وشمس به صلات الاشراف ولقادة وجرائر الملوك والسادة في نصائد
 لسانين وبالطوال التي تشد يوم الحفل لم يجد بدا من صنع زهير الخطيب
 وشاعهما، فاذا قالوا في غير ذلك أشعوا حق الكلام وتركوا اليهود: ولم نرم
 مع ذلك يستعملون مثل تديريهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب، بل
 كان الكلام لبات عنهم كالقنصب اقتداراً عليه وثقة بحسن عادة الله عندهم
 فيه: وكانوا مع ذلك اذا احتاجوا إلى الرأي في معظم لتديريهم ومهمات الامور
 يملأوه (١) في صدورهم وقيلوه حل الفهم فاذا قومه لثفاف وأدخل للكبر، وقام
 حل الخلاص أبرزوه بحككا متقعا، ومصلى من الادناس مهذبا (٢):

ان وقوف الشعراء عند قصائدهم لينفحوا ويبعدوا النظر فيها يدل على الروح
 القادية التي كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقده السامعون: وما يتصل بالقد
 قبل الاسلام ما كان شائعا من أحكام يتناولها الشعراء وما كان يدور في اسواق العرب:
 وفي كتب الادب والقد كثير منها يتصل بالعلماني والمثقف والفاوية.

لمن شرع الاول - المتصل بالعلماني - ماروي عن حكومة أم جندب لطلابية
 ابن امرئ القيس وعلمة الصحل، فقد فضلت علقمة حينما قال في وصف فرسه:
 «أتركبها للنساء من عساته» بمر كسر القرائح التخطيب (٣)
 على زوجها امرئ القيس الذي قال:

فقد زجر الأهوب ولسان حرة ولسوط منه وقع أخرج مهذب (٤)
 وقد سأل امرؤ القيس أم جندب: بم فضلت علي؟ فقالت: فرس علقمة أجود
 من فرسك: قال: وبماذا؟ قالت: انك زجرت وحركت سائلك وهربت بسوطك،
 أما علقمة فقد ادرك فرسه ثانيا من عنائه لم يضربه بسوط ولم يتعبه (٥):

(١) بيته : قالوه.

(٢) البيان ج ٢ ص ١٢ - ١٤.

(٣) ارناع : السلب. التخطيب : ابطال مرقة.

(٤) أخرج : ذكر التمام. مهذب : سرع.

(٥) الوشح ص ٢٨ - ٢٩.

وما جرى بين ثابته وحسان بن ثابت والخنساء، فقد روي أنهم كانوا يضرعون
لثابته قبة حمره من آدم سوق عكاظ فثأبه لشراءه وتعرض عليه اشعارها وكان
أول من أنشده ذات يوم الاغصى، قال قصيدته التي مطلعها:

ما بكاه فكبير بالأطلال وسسؤالي وسائرد^١ مسؤالي
ثم أنشده حسان بن ثابت:

لسنا الجففات للفرّ يلمن بالضحى وأسبالنا يقظون من فجة دعا
ولدتنا بني العطاء وبنسي محرق^٢ فأكرم بنا خلا واكرم بنا ابنما
فقال ثابته: أنت شاعر ولكتك أنقلت جفانك وأسبالك، وفخرت بمن ولدت
ولم تخضر بمن أنجبك (١). وأنشده الخنساء في هذا المجلس قصيدتها:

قلبي بينيك أم بالعين عسوك^٣ أم القنرت مذ غلت من أهلها الدار
فقال لها ثابته: لا والله، لولا ان سبقك أبو بصير، أنشدني ألفا قلت: أنك
أشعر الجن والانس، فقال حسان: هوانه، لأنا أشعر منك ومن أبيك وجنتك،
فتبض ثابته على يده ثم قال: يا ابن لحي، أنك لا تحسن أن تقول مثل قولي:
فإنك كالسبل الذي هو مفركي وإن غلت ان المتأى عنك واسع
ثم قال للخنساء: أنشدني، فأنشده، فقال: «والله ما رأيت أني أشعر منك»،
فأثت للخنساء: «والله، ولا رجلا» (٢).

وما يتصل بالثقة كلمة والصبرية في بيت المسبب بن علس:

وقد اتانى لهم عند اذكاره يتاج عليه الصبرية مكرم (٣)
فلما سمع طرفة هذا البيت قال: واسترق الجمل، لان والصبرية سنة في عنت
الثقة لالجبر (٤):

(١) الموضع ص ٨٢. والضم في الاصل ص ٢
(٢) الشعر والشعر ج ١ ص ٣١٤.
(٣) قاضي الجمل. صبرية: سنة في عنت الثقة المكرم: التليل أو المسبب.
(٤) ص ١١٠ - ١٢٣.

ربما ينقل بالقواني ما ذكروه من الثابتة، فقد قالوا: الله لم يفتخر أحد من شره
تلقية الأولى الأخرى في قوله :

أسن آل مئة راتح أو مفندي حبلان ذا زاد وغير مزود
زهم البولح أن رحلتناغنا وبذاك خبرنا قراب الأسود
وفي قوله :

سقط الصيف ولم ترد امشاطه فتأوتسه وانفسا باليد
ببغضب رخصر كأن بنائه عتم بكاد من الطاعة يعقد
تقدم المديفة فبيب عليه ولم يابه، وجملوا بخبرونه وهو لا يفهم ما يريدون، والوا
جارية : اذا صرت إلى لقانية فرثي، فلما قالت : «قراب الأسود» وهبعتده
رواليد، وهزود، علم فاتبه فلم يعد فيه، وقال : «قدمت الحجاز وفي شعري
سنة ، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس» (١) : وقال عمرو بن قلاء : «حبلان
من القراء كانا يفتويان : ثابتة ويثرين أبي خزيم ، فأما ثابتة فتدخل يثر
تسني بشعره فتفطن فلم يعد للاقواء، وأما يثر بن أبي خزيم فقال له
شعره سواد : «ك تفتوي. قال : وما الاقواء؟ قال : ثورك» :

تران طول الدهر بسلي وبني مظلم تسيث جلام
ثم قلت :

ركنا قوما نبتوا علينا فسقناهم إلى البك القمام
قال : ثبت خطي، ولست بعالم (٢) :

وذكر أبو هلال العسكري أن القنماء أشاروا إلى الفصل والوصل في الكلام،
قال : «وكان أكرم بن صيني اذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : انفصلا بين
كل حلى منقش، وصلوا اذا كان للكلام معجونا بمضمه يحن: وكان الحارث

(١) اللؤلؤ ص ١٥-١٦.

(٢) الشعر والقراء ج ١ ص ١٧٠، واللؤلؤ ص ٨٠.

ابن أبي شمر الثعالبي يقول لكاتبه الرقش: اذا تزج بك للكلام إلى الايضاح سمع
غير ما أنت فيه فالصل بينه وبين تبيحه من الالفاظ - فانك اذا حذفت الالفاظ
بغير ما يحسن أن تحذف به نفرت القلوب عن وجهها، ومكته الاسماع، واستغفله
قرواه (١):

وشك بعض الباحثين في هذه الروايات (٢)، ولكننا مع هذا الشك نقرر ان
هذه الروايات تعكس جانباً من فهم العرب للفقه في مرحلة لتكوين الأولى، وليس
بعيداً أن تصير مثل هذه الاحكام قبل الاسلام بعدما رأينا كثيراً من الدلائل التي
تؤيدنا ذهبنا اليه: يضاف إلى ذلك ان هذه الروايات ليس فيها التعليل القائل من الشفرة
العلمية لكي نكرها وإنما هي احكام حابرة أطلقتها الشفراء والحكمون، معتمدين
على الفوق القطري الذي عرف به العرب: وكان شفاء اليونان بعد ان انتهى عصر
اللامع وازدهر الشعر الثعالي في القرن السادس قبل الميلاد يصنعون بعض الاحكام
التي تسمى عن رأي ذاتي أبعد ما يكون عن القاعدة العلمية. ومعنى ذلك أن الشفراء
شاركوا في حركة الفقه القديم، علم لا ينطبق ذلك على العرب وهم أهل علم وعناية
ودوق ورواية، ولهم عتبط رائعة وشعر بديع؟

وإذا ما نظرنا إلى العصر الاسلامي رأينا إيمان العربي بالقرآن الكريم واعتقاده
الاسلام كان حكماً قلبياً أدركه بذوقه السليم وفطرته الصادقة، ورأينا الرسول
الكريم محمداً - صلى الله عليه وسلم - يعنى عناية عظيمة بأحاديثه وخطبه، وقد
أثر عنه انه كان يقول ولا يقولون "أحدكم: حيث نفسي، ولكن ليقبل: نفسي"
تسمى، كراهية أن يضيف المسلم الحديث إلى نفسه (٣). وكان يستمع إلى الشعر
ويقول: وان من البيان لسحراء: وكان الخلفاء الراشدين والصحابة يستمعون إلى
الشعر ويسمون رأيهم فيه:

(١) كتاب الصالحين ص ١١٠.

(٢) ينظر تأريخ الله الأدبي من العرب ص ١١٩ ودروس في البلاغة ونظورها ص ١٠٠.

(٣) الحيوان ج ١ ص ٢٢٥.

وإذا ما نظرنا إلى العصر الأموي رأينا الحياة الأدبية تزدهر، وكان الخلفاء يقدرون
النجاس ويستمعون إلى الشعراء ويعلقون على بعض ما يسمعون، ومن ذلك أن ابن
قيس الرقيات أشهد عبد الملك بن مروان قصيدته التي يقول فيها:

يا شقيق الحاج فوق مسرقته على جبين كائنه الذهب
فما سمع عبد الملك ذلك غضب وقال له: ولقد قلت في مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب من الله تجلّت عن وجهه الظلماء
فأعطيته للذبح بكشف العثم وجلاء الظلم، وأعطيتي من الملح مالا فخر فيوهو
اعتدال الحاج فوق جيني الذي هو كالذهب في الثفارة(١).

وكان الأديبون يقومون بدور عظيم في تعليم اللغة وأدبها ورسم القواعد العامة
التي تنفي إلى اتقان اللغة وتلوّنها: وكان هؤلاء الأديبون يخوضون في موضوعات
كثيرة، وليس من شك في أن الفصاحة والبلاغة كانت من تلك الموضوعات:
وشهد القرن الثاني للهجرة حركة أدبية واسعة، وكانت المحاضرات تزخر بالعلماء،
وبلغت حركة التلويح والتأليف ذروتها في العصر العباسي الأول، وظهرت كتب
التفسير واللغة والأدب والتاريخ تحمل تراثاً ضخماً سائلاً بكل طريف، وكانت
البلاغة أحد العلوم التي اهتم بها العرب منذ عهد مبكر، وقد دفعتهم إلى العناية
بها أهداف ومؤثرات كثيرة:

الأهداف:

إن الحياة الجديدة التي عاشها العرب بعد أن خرجوا من جزيرةهم دفعتهم إلى
العناية باللغة والأدب، لأنهم وجدوا تحديات كثيرة تعرضت لها العربية بعد أن
دخل في الإسلام قوم أرادوا هدمه وتقويض دولة العرب. وكانت الجهود العظيمة
التي بذلها النخسون ابداً ما يظهر علوم اللغة التي اعتلت تتطور جيلاً بعد جيل حتى
أصبحت سائفة لا تقدر عليها هرج الأعاصير:

(١) نقد الشعر ص ٢١٤.

وقد تطافرت أسباب وأهداف كثيرة دفعت العرب إلى الخوض في الدراسات
البلاغية ، ويمكن تلخيصها في :

١- الغرض الديني :

وهو عندهم القرآن الكريم الذي كان معجزة تحدى الانس والجن ، والتي
يرهنوا على اعجازها ويفهموا آياته واسلوبه ليستطيعوا الاحكام من اتجهوا إلى
البلاغة باحثين فنونها وتوضحين اسماها لتكون لهم عوناً على فهم القرآن .
وكان هذا الغرض من اهم الاهداف التي دفعتهم الى البحث والتأليف فيها . وقد
أشار ابر حلال العسكري إلى هذا الهدف السامي بقوله : واعلم - عمك الله الخبير
ودقق عليه وقبضه لك وجعلك من امله - أن أحق العلوم بالتعلم وأولاهها
بالتحفظ بعد المعرفة بالله - جل ثناؤه - علم البلاغة ومعرفة فصاحة لذي به
يعرف إعجاز كتاب الله تعالى شاطن بالحق ، الهادي إلى سبيل الرشاد ، اللطول به
على صدق قرئانه وصحة النبوة التي رفعت اعلام الحق واثقت منار الدين ،
وأتت شبه الفكر ببرايمتها ، وهتكت حجب الشك يقينها . وقد علمنا أن الانسان
إذا اغفل علم العربية وأهل بمعرفة فصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة
ما عصفه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شئت من الأيجاز البديع
والاختصار الطيف ، ووضعت من الحلاوة ، وجلة من رونق العلوقة ، مع سهولة
كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسن التي عجز الخلق عنها
وغيرت عقولهم فيها ؛ وإنما يعرف إعجازها من جهة عجز العرب عنه وقصورهم
عن بلوغ غاية في حسه وبراعته وسلاسة ونصاعته وكان معانيه وصفاء ألفاظه .
وقبح لسري بالقبية التأم به ، والقارىء المهتدى بديه ، والمتكلم المشار إليه
في حسن مناظرته ونظام آله في مجادته وشدة شكيمته في حجاجه ، وبالغري الصليب
والقرشي المصريح أن لا يعرف إعجاز كتاب الله - تعالى - إلا من الجهة التي
يعرفه منها القرشي والبناني ، أو انه يستدل عليه بما استدل به الجاهل العربي : فينبغي
من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله - تعالى -

ومعرفة عدله والتصديق بوحده ووعده إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تنطوي للمعرفة
بالله حل اسمه (١)

٢ - الفرض التطهيري :

وهو تعلم الناشئة اللغة العربية ومعرفة أساليبها بعد أن اتصل العرب بأهم شئ
وأدى ذلك الاتصال إلى فساد اللغة ودخول النجس فيها. يضاف إلى ذلك أن كثيراً
من المسلمين كانوا بحاجة إلى تعلم العربية ويلاحظونها ليقنعوا القرآن الكريم وليعيشوا
في ظل دولة لغتها العربية. وكانت المفردة الكتابية في كثير من الأحيان السبيل
للموصل إلى المناصب الرفيعة وكان على من يسعى إلى تسنها أن يكون كاتباً له في
الأدب وفنونه يد طولى وله أسلوب رفيع. فلما تعلم العربي الناشئة في بيت
امتزجت فيها الفنون بلغة ويصبح قادراً على التعبير الحسن والنظم الرائع واتساع
الرسائل، ولكي يتعلم المسلم لغة دينه ولغة الدولة التي يعيش في ظلها، ولكي
يصل الناس إلى أرقى المناصب وأعلى الرتب - كان عليهم جميعاً أن يتقنوا
العربية، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة لغاتها وتراكيبها ومعانيها وأصنافها،
وبالإضافة إحدى السبل التي توصل إلى هذه الغاية وتخدمها .

٣ - الفرض التقليدي :

وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء والموازلة بين التصانيد والتصانيف
والرسائل : وبالإضافة تعيين النقاد كثيراً لأنها تقدم له الآلة التي تعينه على فهم
والحكم ، ولذلك نجد القدماء يعنون عناية كبيرة بها ، ويؤلفون الكتب فيها :
وقد أشار العسكري إلى الهدىين التطهيري والتقليدي بقوله : هو لهذا العلم بعد ذلك
فضائل مشهورة ومناقب معروفة ، منها أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه وفرط
في تشامه فضائله فضائله وحلفت به وذيلة فوته حتى على جميع محاسنه وخصي
صائر فضائله ، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء وانطق حسن وآخر قبيح ،

(١) كتاب الصائين ص ١ - ٢

وشرفا در وآثر بارد ، بان جهله وظهر تنصه : وهو ايضا اذا اراد أن يصنع تصبيرة
أو ينشي رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصغور بالكبر وخطأ الفزور بالمرور واستعمل
الوحش العكر ، فجعل نفسه مبرأة للجاهل وعبرة للعامل كالمثل ابن جندر في قوله :

حلفت بما أرقلت حولي همرجلة علقها شيطم
وما شبرقت من تنوفية بها من وحى الجن زيزيم (١)

وانشده ابن الأعرابي فقال : ان كنت كاذبا فإله حبيك : وكذا ترجم بعضهم
كتابه إلى بعض الرؤساء : ومكرمة تروتا ومحبوسة بسرنا ، فدل على مخالفة
عقله واستحكام جهله ، وشره القريب الذي اتقته ولم ينهه ، وحسنه ولم يرفسه ،
لأنه هذا العلم وتختلف عن هذا الفن :

وإذا اراد أيضا تصنيف كلام مشور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذا العلم
سواء اختياريه وقبحت آثاره فيه ، فأخذ الرديء الرذول وترك الجيد المقبول ، فدل
على قصور فهمه وتأخر معرفته وعلمه (٢) :

ويصل بهذا القرض رواية الأدب وبمعرفة الجيد الذي يروى والرديء الذي
يبدى ان يطرح : وقد اشار العسكري إلى ذلك بقوله : هو قد قيل : اختيار الرجل
لطاعة من عقله ، كما ان شره قطعه من علمه : وما أكثر من وقع من علماء التربية
في هذه الرذيلة ، منهم الأصمعي في اختياره تصبيرة الرقش :

هل بالديار أن تجيب صمم لو أن حيا ناطقا كلمم
ولا اعرف على اي وجه صرف اختياره إليها وما هي بمستقيمة الوزن ولا مرقق القروري
ولا سلسة اللفظ ولا جيدة السبك ولا متلائمة للسمع ، وكان للفصل يختار من الشعر

(١) أرقلت : أسرعت. المهرجلة : الناقة الشيطم : الطويل الجسم. شبرقت : عانت.
التنوفية : اللقطة والأرض الواسعة. الوحى : الصوت الغنى.

زيزيم : صوت الجن.

(٢) كتيب سعدائين ص ٢-٣.

ماقبل تداول الرواة له ويكثر الغريب فيه، وهذا خطأ من الاختيار، لان الغريب لم يكثر في كلام الا أسدله وفيه دلالة الاستكراه وتشكلف (١) :

وكانت هذه الاهداف دافعا قويا حفزهم إلى الخوض في دراسة البلاغة والتأليف فيها ، وكانت هذه الاهداف غرض المؤلفين جميعا ، ولانكاد نجد كتابا من كتب البلاغة واعجاز القرآن يخلو من الاشارة اليها ، ولعل ماقلناه من مقدمة كتاب الصناعين، لابي هلال العسكري يوضح الغرض ويخدم الفكرة ويبين على تصور للمواضع الكثيرة التي كان لها لفضل الكبير في ظهور كتب البلاغة.

وقد تظافرت جهود كثيرة على وضع أسس البلاغة وأصولها ، ويمكن ان تلتمس ذلك في المفسرين والاصوليين، والفتويين والشعراء، والشعراء والكتّاب، والفلاسفة والمثكلمين. وكانت كل طبقة من هؤلاء تتفق في كثير من الاسس وتنفي في اهداف واضحة المعالم، وان كان رجالها يخلطون في تصورههم البلاغة المؤثرات :

أثرت في نشأة البلاغة وتطورها عدة عوامل أهمها:

القرآن الكريم :

كان القرآن الكريم ذا أثر عظيم في البلاغة ، وقد شغل الناس به وأعملوا بتدريسونه ووضوحون معانيه ويتحدثون عن ألفاظه وتراكيبه ومافيه من فنون وقف العرب أمامها مبهورين. وكانت البلاغة من العلوم التي أولوها عناية كبيرة وجعلوها واحق العلوم بالتعلم وأولاهها بالتحفظ - بعد العرفة بالله جلّ شأنه - لانه الانسان اذا اغفل علم البلاغة وأهمل بمعرفة لفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ملخصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وماشحته به من الأيجاز البديع (٢) وذهبوا أبعد من ذلك فقال عمرو بن عبيد عن البلاغة أنها ومايلق بك الجنة، وحذل بك عن النار، ومايصر لك بمواقع رشك وعواقب عيبك(٣) :

(١) كتاب الصناعين ص ٢

(٢) كتاب الصناعين ص ١

(٣) الهياك والشعير ج ١٠ ص ١١٤ .

وكان تأثير القرآن واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية ، وكانت آياته
 هيئات الشاعرة البلاغي الرفيع . وكانت إحدى آياته مدعاة إلى أن يؤلف أبو عبيدة
 معجزة القرآن . يقول : وأرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج
 إليه سنة ١٨٨هـ ، فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه فأذن لي ، فدعوت عليه وهو
 في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملاءه ، وفي صدره فرش عالية
 لا يرتقى إليها إلا على كرسي وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة ، فردّ
 وضحك واستدعاني حتى جلست إليه على فرشه ، ثم سألني وألطني وبسطني
 وقال : ألسنتي ، فأنتهت فطرب وضحك ، وزاد نشاطه . ثم جعل رجل في
 زى الكتائب له هيئة فأجلسه إلى جالبي وقال له : أشرف هذا ؟ قال : لا :
 قال : هذا أبو عبيدة حلّامة أهل البصرة ، أقدماه لتستفيد من علمه : فدعا له
 الرجل وفرطه لتعلمه هذا ، وقال لي : لبي كنت اليك مشتاقا ، وقد سألت عن
 صائغ . أتأذن لي أن أهرقك ياها ؟ فقلت : هات . قال :

قال الله - جز وجل - : « طَلَّعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ » (١) ، وإنما يقع
 التردد والأيحاء بما عرف مثله وهذا لم يعرف . فقلت : إنما كَأَنَّ الله تعالى العرب
 على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقنتني والشرفسي مُضاجعي ومستأثري زُرِّي كَأَنَّابِ أَغْوَالٍ
 وهم لم يروا أغوال قط ، ولكنهم لما كان أمر القول يبولهم لوعدها به . فاستحسن
 الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك أن أضح كناية في القرآن
 في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه . فلما رجعت إلى البصرة عملت
 كتابي الذي سميت به «المجاز» (٢).

وانتهى ابن خلدون إلى أن ثمرة علم البلاغة وإنما هي في فهم الأصحاح من
 القرآن ، لأن أحجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ،

(١) سورة الصافات، الآية ٦٠.

(٢) مجيب الأديب ج ٧ ص ١٦٦ - ١٦٧.